

وَسَائِلُ الصَّيْدِ

تمهيد:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

ومن تكريم الله تعالى للإنسان وتفضيله إيَّاه على كثير من خلقه، أن سَخَّرَ له ما في السماوات وما في الأرض من نامٍ وغير نام^(١).

وقد أجهَلْتُ ما سَخَّرَهُ الله تعالى للإنسان من النامي وغير النامي، الآية الكريمة من سورة الجاثية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثم فصلت هذا الإجمال أكثر من عشرين آية في كتاب الله من أجمعها لهذه المسخرات الآيات الكريمة من سورة النحل: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءًا وَمَنَافِعَ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَنِيِّ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ

(١) آثراً سابعة الجاحظ في تسميته لكائنات إلى نام وغير نام، على تقسيمه غيره إليها إلى حيوانات ونبات وحمام، وليس يخفى عليك إذا تأملت وجه هذا الإيثار فإن من لتنقص أن يسمى الماء جماداً.

الشمسَ إِنَّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون. وسُحَّرَ لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إِنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إِنَّ في ذلك لآيةً لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتسخرجوا منه حليةً تلبسونها وترى الفلك مواجر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون.

فأنت ترى أن هذه الآيات من سورة النحل قد فصلت إجمال الآية من سورة الجاثية من حيث انتظمت النامى وغير النامى مما سخر الله لعباده من الكائنات، ولو كان لنا أن نعرف تاريخ النزول لقطعنا بهذا الذى ذكرنا. وإذا كان لا سبيل لنا إلى التوقيت فإن ثمة احتمالاً آخر، أن تكون اية الجاثية قد أجملت التفصيل فيها سواها من الآيات.

والتفصيل بعد الإجمال كالإجمال بعد التفصيل، كلاهما يرد به القرآن الكريم وكلاهما تتحقق به أغراض بلاغية شريفة.

ومهما اختلف أهل النظر في تعريف الإنسان على أنه حيوان ناطق، أو حيوان متدين، أو حيوان مدنى بالطبع، أو روح علوى سقط إلى الأرض من السماء، أو حيوان صانع للآلات، فإنهم متفقون على أن الحيوانية جزء من طبيعته وأصل في فطرته، فهو حيوان قبل كل اعتبار. وإنما يمتاز من سائر الحيوان بأمرين: القدرة على الإدراك، والقدرة على التحكم فى النفس. فعن الإدراك يمضى يوازن ويقابل ويستنتج، وعن التحكم فى النفس، يريد وينصرف فى حدود ما يريد، مخالفاً غرائزه ومعانداً شهواته فى كثير من الأحيان.

فالآدميون - بحكم الفطرة التى فطرهم الله عليها - لا يختلفون فى أصل إدراك الأشياء، نفعا أو ضرا، وخيرا أو شرا، ﴿إِنَّمَا نَجْعَلُ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾.

وإنما يختلفون بمقدار تفاوت هذا الإدراك وليس بأصله، لأنه ثابت لكل ولد آدم بمقتضى الآيتين الشريقتين، ثم بمقتضى ما نشاهده في دنيا الناس، وإذا تفاضلوا، فإنما يتفاضلون بمقدار تحكّمهم في أنفسهم، وكبحهم جراح أهوائهم وشهواتهم وتوجيههم إياها في حيث وإلى حيث يريدون.

ومن هنا يقرأ القارئ قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فإذا تدبّر هذا الذي قرأ كان له أن ينسب الملائكة إلى الخطأ وعلمهم إلى القصور في وصفهم آدم وذريته بأنهم لا يعدّون أن يكونوا مفسدين في الأرض سفاكين للدماء، فإن بنى آدم أجلّ من ذلك وأعظم، بدليل أن الله تعالى رد على الملائكة زعمهم الذي زعموا، حيث قال جل ثناؤه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وما ينبغي التنبيه له، أن المراد بالتسخير في الآيات من كتاب الله عز وجل، إنما هو تذليل الله للإنسان الكائنات وقهرها له، حتى تتصرف تصرفها الدائب في غير توقف ولا اختيار، فينتفع بها على قدر ما يستخدم من عقله ويبدل من جهده.

وهذا يظهر معنى خلافته في الأرض، إذ أنه - وليس له جسم الفيل على ضخامته، ولا قوة الأسد على جراته ولا حيلة النمر على دهائه - قد أخضع لسيادته الفيل حتى جعله من جنوده في المعارك، والأسد والذئب والنمر والفهد حتى اتخذ منها وسيلة لهو، أو آلة صيد، فإذا جميع ما في كون الله العظيم مسود له، خادم لرغائبه. وإذا كل ما فرقه الله في أصناف الحيوان بالآلة الكاسية، قد جمعه تعالى لأبناء آدم بالقوة العاقلة.

وكما جعل الله ولد آدم بعضهم لبعض فتنة، فسلط بعضهم على بعض يقتل القوى الضعيف بقوته، وربما قتل الضعيف القوى بحيلته، كذلك سلط الحيوان

بعضه على بعض، وأغرى أجاس الطير بعضها ببعض، يقتل القوى الضعيف بقوته وربما قتل الضعيف القوى بحيلته.

وقبل أن نتعرض بالحديث لوسائل الصيد من الضاريات والحارحات، نتم حديث عن وسائل غيرها عرفها الإنسان في هذا المجال.

الفرس^(١):

والفرس أكرم وسائل الصيد، من حيث كان وسيلة استخدمها العربي في محال الصيد وفي محال الحرب، وانتفع به في المجالين على سواء، وقد خلّدوا ذلك في أشعارهم وأسماءهم.

وكلمة فرس مشتقة من الأفراس، لأنها تفرس الأرض بسرعة سيرها، كما أن كلمة خيل مشتقة من الخيلاء، لأن راكب الخيل كثيراً ما يجد ذلك في نفسه.

وراكب الفرس يدعى فارساً، لا يوصف بهذا الوصف غيره، والفرس الكريم أشبه بالإنسان، من حيث ما فطره الله عليه من الكرم وشرف النفس ورعاية حقّ الصحبة وسدّة الوفاء لصاحبه، فإنه إذا سقط عن ظهره وقف ينتظره حتى يركبه، ثم هو لا يمكن غير صاحبه من ركوبه، ولا يبول ولا يروث مادام راكبه مستوياً على ظهره، وربما حزن الفرس لموت صاحبه حزناً أفضى به إلى الموت. وأهل العلم يجعلون الخيول أقساماً ثلاثة:

أولها: الخيل الغراب، وهي أفضلها وأعلاها قيمة، وإنما تطلب للسيط والطراد.

(١) لفرس لذكر ولأنش (القاموس)

وثانيها: العجم، وهى البراذين أو الهماليج أو الأكاديش، وإنما تطلب لشدة صبرها على السير.

وثالثها: نتاج ما بين العرب والعجم. فإن كان الأب عربياً والأم عجمية، فالولد هجين، وإن كان الأب عجمياً والأم عربية، فالولد مقرف.

والقياس ماض على هذا النهج فى الحكم على بنى الإنسان، فإذا كان الأب عربياً والأم عربية فهو فى لغة العرب صريح، وإن كان الأب عربياً والأم غير عربية فالولد هجين، وإن كانت الأم عربية والأب غير عربى فالولد مقرف.

وكرام الخيل المشهورة عند العرب كثير، فى ذروتها فرس يدعى «زاد الراكب» أهده سيدنا سليمان عليه السلام إلى قوم من الأزد، ونههم إلى إن هذا الفرس أداة صيد تحصل لهم طعامهم، ووسيلة سفر تبلغ بهم غايتهم، فذلك حيث قال: إذا نزلتم منزلاً، فاحملوا عليه غلاماً واحتطبوا، فإنكم لا توقدون ناركم حتى يأتىكم بطعام. فسار به القوم، فكانوا لا ينزلون منزلاً إلا ركبهم أحدهم للصيد والقنص فلا يفلت شئ تقع عليه عينه، وحشاً كان أو ظبياً أو بقرة أو حماراً، حتى قدموا بلادهم فقالوا: ما لفرسنا هذا اسم إلا «زاد الراكب» فيها يزعمون.

وفى فحول العرب من نتاج هذا الفرس يقول امرؤ القيس:

إذا ما جرى شأوين وابتلَّ عطفه تقول هزير الريح مرّت بأثاب^(١)
إذا ما ركبنا قال ولدانُ أهلنا تعالوا إلى أن يأتى الصيد نحطب^(٢)

(١) لسوء اطلاق السريع وبتل لعتف سيلان العرق على جانبيه. وهزير لريح صوتها والأثاب سحر. يقول الشاعر إن هذا الفرس إذا جرى بلله العرق لأنه سريع لجرى حتى كأنه صوت الريح خلال لأسفار.

(٢) حطب يحطب جمع الحطب للشواء والطبخ يقول لشاعر إذا ركبنا هذا الفرس ابتغاء الصيد فإن الصبيان من أهلنا يشادون إلى جمع الحطب لشواء الصيد ثقة منهم بأن ركبته لا بد أن يعود بالصيد.

قيومًا على سرب نقى جلوده ويومًا على بَيْدَانَةٍ أَمْ تَوْلِبُ^(١)

هذا.. وهذا الكتاب لم نكتبه لاستيعاب مثل هذه المعاني، فإن العرب قد وصفوا الخيل وكتبوا في ذلك كتبًا رائعًا معجبة، فمن أراد من ذلك شيئًا فعليه بتلك الأمهات.

غير أننا كما ذكرنا عن القدماء شيئًا، نروى في صفة فرس أبياتًا لأبي الطيّب المتنبي - رحمه الله - يقول فيها:

ويوم كلَّيل العاشقين كمنته	أراقب فيه الشمس أيا ن تغرب
وعيني على أذنى أغرَّ كأنه	من الليل باقٍ بين عينيهِ كوكبٌ
له فضلة عن جسمه في إهابه	تجىءُ على صدرٍ رحيبٍ وتذهب
شققَتْ به الظلَّاءُ أذنى عنائه	فيطغى وأرخيه مرارًا فيلعبُ
وأصرعُ أيُّ الوحش قفيته به	وأنزلُ عنه مثله حين أركبُ

يصف الشاعر نفسه بأنه - حشية أعدائه - يكمن نهارًا حتى تغيب الشمس ويسير ليلاً، فنهاره طويل كليل العاشقين، فإذا جاء الليل وركب فرسه الأسود ذا العرة البيضاء في وجهه، لم يرفع عينيه عن أذنيه، ابتغاء أن يعرف ما في طريقه عن شخوص وأعيان، فإنَّ الفرس إذا أبصر شيئًا من ذلك نصب أذنيه نحوه فيعلم الفارس أن ثمة شيئًا يتقَى؛ وقد سَمِعنا من فرسان قومنّا في صعيد مصر أن راكب الفرس إذا وضع بندقيته بين أذنيها إذا نصبتهما، ثم أطلق رصاصه في هذا الاتجاه فإنها لا يبد أن تصيب.

(١) السرب: ينطلق من بئر لوحس وبقاء لجلود بياضها. والبيدانة: الحمارة الوحشية المكتنزة الجسم والتولب: المحس الذي هو ولدها. يقول الشاعر: إنا بصطاد هذا الفرس في بعض الأيام عر الوحش، وفي بعضها الآخر حمراً وحشية سمينة.

ومضى أبو الطيب يصف فرسه باتساع الجلد، وأن له فضلة عن جسمه في إهاب تجيء وتذهب على صدره الرحيب، فأتساع الجلد تيسر به الفرس شدة العذو. وقد مضى الشاعر يذكر أنه راح يشق الظلماء بفرسه هذا فحيناً يجذب عنائه إليه فيطفئ ويشب مرحاً ونشاطاً، وحيناً يرخيه له فيلعب ما شاء له اللعب، وأخيراً وصفه بأنه إذا اتبع به وحشاً، أى وحش، لحقه فصرعه دون أن ينال فرسه تعب، فهو حين ينزل عنه، مثله حين يمتطيه.

ناقلة الصيد:

ربما بدا غريباً أن يكون البعير وسيلة صيد، فإن القوم لم يألفوه إلا حامل أنقال، وإلا ذا قدرة بالغة على مصابرة الظمأ ومطاوله مشقات المسير. فأما أنه يجارى الوحشيات حتى يتمكن راكبه من صيدها فذلك ما لم يألفه القوم ولم يتعارفوه.

وإنما الذى عرفوه وألفوه وخلدوه فى أسمارهم وأشعارهم، أن البعير ذريعة إلى مخاتلة الصيد ومخادعته فيمشى الصائد إلى جنبه مستتراً به، حتى إذا أمكنته الفرصة رمى الوحش فأصماه، فذلك قول حسان من قصيدة يمدح بها المهاجرين والأنصار وهو منهم:

إذا نصبنا لقوم لا ندبُ لهم كما تدبُّ إلى الوحشية الذرع

وكذلك قول الآخر:

وللمنية أسباب تقرُّبها كما تقرُّب للوحشية الذرع

فالذرع هى الناقة التى يتذرع بها الصائد إلى الصيد.

الجرى وسيلة صيد:

ومن وسائل الصيد جرى الفتى العربى وشدة حُضره^(١)، حتى إن الخيل لا تتعلق به، فهو يعادى الظباء فيصيد منها ما يصيد آخذًا بقرونها.

وصعاليك العرب العداءون في هذا الباب، جياذ أصيلة لا يشق لها غبار.. حكى أبو عبيدة عن أحد هؤلاء الصعاليك وهو السليك السعدى فذكر: أن فارسين على جوادين تبعوا هذا الصعلوك ليأخذه قبل أن ينذر قومه بمغيرته عليهم ولكنه مضى يشتد في حُضره فلم يدركاه، حتى أتى قومه فأنذرهم فكذبوه لبعد الغاية فأنشأ يقول:

يكذبني العمران عمرو بن جندب وعمر بن سعد والمكذّب أكذب
ثكلتهما إن لم أكن قد رأيتها كراديس يهديها إلى الحرب موكب

يقول داعيًا على نفسه بكل أبناء عمومته، إنه رأى الخيل جماعات في موكب يسوقها أعداؤهم إلى حريمهم، ثم أتى قومه ما كان قد أنذرهم به فندموا ولات ساعة مندم. فهذا وأمثاله من فتيان العرب لا يستبعد المرء أن يتمكنوا من صيد الظباء بالأيدى دون حاجة إلى فرس، ومطرده^(٢).

ومن الصور العجيبة في هذا الباب أيضًا، ما روى محمد بن يزيد المبرد صاحب الكامل عن الأصمعي أنه قال نظر رجل إلى طيبة ترد الماء فأعجبته وكان إلى جانبه فتى أعرابي يلاحظه فقال للرجل: أرى أنها أعجبتك، أفتحب أن تكون لك؟ قال الرجل: نعم. قال: أعطى أربعة دراهم حتى أردّها إليك،

(١) الحضر شدء الطور.

(٢) لطرده. ربح تمرير بطن به الوحش ربيًا من بعد.

فأعطاه فخرج بمحص^(١) في أثرها، فجذت فجذ، وشدت فشذ حتى أخذ
بقرنيها فردّها عليه وهو يقول:

وهى على البعد تلوّى خدها تزيع شدى وأزيع شدّها^(٢)
كيف ترى عدوى غلام ردّها وكلما جذت ترائى عندها

فهكذا كانت البادية تمتنع الذين يعيشون في أحضانها من القوة والفتوة شباباً
وكهولاً وشيوخاً ما يجعلهم يستمتعون من الحياة بأعز ما فيها من صحة وقوة
وهناة على الرغم من شظف العيش وخشونة الحياة التي تلّم في كثير من الأحيان
بالكثيرين منهم.

والرمضاء أيضاً:

الرمضاء: الحجارة التي اشتد عليها وقع الشمس فحيمت، ومن ذلك قالوا
لشهر الصوم رمضان لأنهم حينما وضعوا أسماء الشهور صادف ذلك الشهر شدة
الحر، كما قالوا جمادى الأولى، وجمادى الآخرة لأنهم حين وضعوا هذا الاسم
صادف ذلك تجمد الماء.

وقد كانت الرّمضاء من وسائل الصيد عندهم، فكان أحدهم يخرج ليصطاد
الظباء فيسوقها في الرّمضاء حتى تنفسخ أظلافها، فيأخذها في غير عناء فذلك
قولهم: «خرج فلان يترمّض الظباء».

والنار أيضاً:

ومن هذه الوسائل أيضاً النار توقد للظباء فتعشى إذا أدامت النظر إليها.

(١) محص: يجد السر (القاموس).

(٢) الزيع: الميل (القاموس).

فيكون صيدها أيسر ما يكون. وقد أذكر أنني رأيت هذا المشهد في غابة بـ«هوبال» في الهند عام ١٩٦٥ ميلادية حين زرنا الهند للمشاركة في الاحتفال بتتصيب سيدنا محمد برهان الدين سلطاناً على طائفة البهرة، وذلك أن سائق السيارة وسط تلك الغابة كان يسلط مصابيحها فتقف الأطباء محدقة فيها ذاهلة عما حولها، فلا تلبث أن تصرعها رامية الرصاص عن يد حاذق في الرماية بصير. وربما أوقدوا النيران على الأسد يهولون بها عليها حين يخافونها، فإذا عاين الأسد النار حدق فيها وتأملها فتشغله عن السابلة.

ومما يروى في هذا المقام ما ذكره الجاحظ من قوله: مرُّ أبو ثعلبة الأعرج على وادى السباع فعرض له سبع، فقال له المكاري: لو أمرت غلمانك فأوقدوا ناراً وضربوا على الطسوت. لكان في ذلك نجاء. فلما فعلوا أحجم الأسد عنهم. فمن أجل ذلك أحب أبو ثعلبة النار والصوت ولو كان شديداً مزعجاً، وكان من قبل شديد البغض للنار والصوت حتى روى الرواة عنه في هذا الباب شعراً يقول فيه:

فأحببتها حباً هويت لقاءها ولو في صميم النار نار جهنم
وَصِرْتُ أَلَدُ الصَّوْتِ لَوْ كَانَ صَاعِقًا وَأَطْرَبُ مِنْ صَوْتِ الْحِمَارِ الْمَرْقَمِ

هذا، ومما لا ينكر أن الإنسان ينتفع بالشيء فيؤثره ذاهلاً عما اشتمل عليه من مضرة وأذى، فهذا أبو ثعلبة لما أنجته النار والصوت الشديد من أذى الأسد أحبها على أنها لا يُحِبُّان، وعلى أنه كان يكرهها من قبل.

وقد ذكر الجاحظ أن أعرايياً اشتد عليه البرد فأصاب ناراً فدنا منها ليصطلي، فلما أحسَّ الدفء قال: «اللهم لا تحرميها في الدنيا ولا في الآخرة».